صناعة المنسوجات الصوفية والحريرية في ليبيا
(دراسة في الأصول والتطور)

المقدمة:

تُعد دراسة تاريخ المنسوجات الليبية في مختلف العصور والحضارات التي مرت بها البلاد من المواضيع البكر التي لم تحظَ باهتمام الآثاريين من قبل، ولعل السبب يعود لشح المصادر المتعلقة بهذا الجانب الحضاري من حياة الليبيين من جهة، وقلة المختصين في هذا المجال من جهة أخرى، الأمر الذي شجعني على الكتابة في هذا الموضوع، أو لسد فراغ طالما تحسسه المعنيون في تاريخ المنسوجات.

ولا شك أن تتبع تاريخ المنسوجات الصوفية والحريرية في ليبيا بأدلة وشواهد أثرية تعد إضافة جديدة يمكن بواسطتها التوصل إلى معرفة أصول هذه الصناعة وتطورها في الحضارات المتعاقبة، والوقوف على طبيعة الصناعات المرتبطة بها. ولقد تناول البحث ركائز مهمة شملت العديد من النقاط أهمها:

- استعرض تاريخ صناعة النسيج في ليبيا منذ عصور ما قبل التاريخ مرورًا بالحضارة الإغريقية والفينيقية فالرومانية وصولاً للحضارة الإسلامية، ولا سيما العصر العثماني مستدلاً بالشواهد الآثارية وبعض المصادر المعاصرة.
- أنواع الصوف الليبي ودرجة جودته، ودوره في صناعة المنسوجات، وأهم مراحل معالجته. ومن ثم سيتطرق البحث إلى الصباغة؛ مصادرها وتاريخها وتقنياتها في ليبيا.
- استخلاص خيط الحرير من مصادره، ودور ولاة الدولة العثمانية في دعم المزارعين وتشجيعهم على إنتاجه محليًّا. كما سيتناول البحث الأنوال التي تقوم عليها هذه الصناعة، أنواعها، وأقسامها وكيفية العمل عليها.

تاريخ صناعة النسيج في ليبيا:

بداية وحول تاريخ صناعة النسيج في ليبيا، هناك من يعتقد[١] أن الفضل في شيوع هذه الصناعة في الشمال الإفريقي بشكل عام وليبيا بشكل خاص، يعود للفينيقيين الذين كانوا يرتادون البحر المتوسط ويتخذون من شواطئه محطات تجارية لا سيما الحواضر القديمة (أويا وصبراتة ولبدة في ليبيا وقرطاج بتونس ٨١٤ ق.م)، ومن قرطاجة انتشرت صناعة النسيج إلى بقية الشمال الإفريقي. في حين يرى آخرون[٢] أن دخول النول الأفقي إلى ليبيا كان على يد عرب الأندلس الذين استقروا بطرابلس ومصراتة والخمس وغيرها من المدن الليبية الساحلية، بعد سقوط غرناطة آخر معاقل العرب في يد الإسبان المسيحيين عام (١٤٩٢م)، حيث أخذت الجماعات الوافدة تستقر في بعض مدن ليبيا وبواديها وتمارس الحرف التي كانت تمارسها في الأندلس، لا سيما حرفة النسيج التي ورثوها عن أجدادهم الشاميين الذين اشتهروا بصناعة النسيج وساهموا في تطوير آلة النول.

غير أن الأدلة والقرائن الآثارية تقول شيء آخر لا لبس فيه، إذ تؤكد معرفة الإنسان الليبي للملابس المنسوجة خلال عصور ما قبل التاريخ، مثلما أكدت تبحره في فن الصباغة وعلم التلوين، وأول تلك المصادر هى لوحات

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٨١م)، ص ١١٣، ١١٤، ١١٥.

(٢) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العصر العثماني، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، (١٩٩٨م)، ص١٤٩.؛ سعيد علي حامد، من صناعاتنا التقليدية النسيج مجلة تراث الشعب، م٣،العدد٣، ٤، السنة الثالثة، (١٤٠٢و. ر/١٩٩٣م)، ص ٦٨.

الكهوف في (أكاكوس وتاسيلي)، حيث وُجدت نقوش تشهد على أن صناعة النسيج في هذه المنطقة كانت متقدمة وتدل على أن السكان كانوا على دراية تامة بفن الحياكة ولهم خبرة لا يستهان بها. وهذا ما يُلاحظ من خلال النقوش الصخرية العائدة لتلك العصور والتي أظهرت صورًا لنساء وبأزياء متعددة، بعضها يشبه لباسنا في الوقت الحاضر، إذ تبدو بوضوح السيدة التي تتوسط الرجلين في اللوحة الصخرية (آكاكوس، وادي– وان آميل)، بأنها ترتدي ثوب شفاف طويل يتجاوز الركبتين يبدو من خلال الرسم أنه منسوج، وهذه ترجع إلى الدور الرعوي القديم في الألف الخامسة قبل الميلاد[١]. اللوحة (١ – أ).

أما **اللوحة الثانية** على اليسار فهي لوحة صخرية ملونة (تاسيلي، وادي – ديرباون) تصور فتيات يمتطين الثيران، ويرتدين ثيابًا فاخرة مزخرفة الأذيال والأكمام، ويبدو من أناقة التلوين، أن الثياب منسوجة من خيوط رفيعة وناعمة والتي من الممكن أن تكون من نبات القنب. يرجع تاريخ هذه اللوحة إلى مرحلة الثيران، أي في الألف الخامسة قبل الميلاد.[٢] اللوحة (١ – ب).

كما تدل الآثار الإغريقية بدورها على أن هذه الحرفة كانت معروفة في مدينة قورينا التي أسسها الإغريق بمنطقة الجبل الأخضر سنة (٦٣٠ق.م)، إذ يظهر في اللوحة التي تمثل شاهد قبر من قورينا عليه نَقش باللغة الإغريقية ورسم لمغزل واللقاط. وهي الآلة التي استخدمنها الإغريقيات كما هو مرسوم على قدح إغريقى من الفخار.. إذ يبدو في الجانب الأيسر من اللوحة المرسومة على القدح سيدة تغزل خيط من الصوف إذ يظهر بيدها مغزل مرفوع إلى الأعلى بينما تظهر جزة الصوف في الأسفل، ويبدو أن سيدة أخرى تقابلها تقوم بنفس العمل، في حين تنسج سيدتين أخرتين القماش على النول الرأسي[٣]. وهو ما يوضح التشابه الكبير بين المنسج الإغريقى مع النول العمودي (الرأسي) المعروف حتى يومنا هذا في أغلب مدن وقرى الساحل الليبي لا سيما إقليم طرابلس وبشكل خاص عند نساء مدن الجبل الغربى وزليطن ومصراتة كنول ينسج عليه الجرد والعباءة الليبية، فضلاً عن بعض المفروشات الأرضية كالمرقوم.

وحول النسيج الليبي[٤] في العصر الروماني؛ فقد عُثر بحفريات مدينة «جرمة» الأثرية بجنوب غرب البلاد على (أقراص) مغازل مصنوعة من الطين المفخور تعود إلى القرن ١–٣ق.م، وعُثر على قطع نسيج الكتان والقطن والصوف في حفريات «قرزة» بغرب ليبيا وهي تعود إلى الألف الأول بعد الميلاد، الأمر الذي يؤكد أن صناعة النسيج في ليبيا كانت قائمة منذ زمن بعيد وعبر الحقب التاريخية المتعاقبة على يد السكان المحليين، ومن جهة

---

(١) لوت، هنري لوحات تاسي، ترجمة أنيس زكى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، (د. ت)، ص ١٢٧؛ مورى فابر بيتشيو، تادر رات أكاكوس، ترجمة: عمر الباروني وفؤاد الكبازى، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٨، ص ٢٣٨.

http://www.tawalt.com/?attachment.id=10310

(٢) لوت، هنرى، لوحات تاسيلى، ص ٢٢٦.

Henritage. D. Mattungly. The Libyan desert natural resources and cultural, London. 2006. P. 98. http://www.tawalt.com/?attachment.id=10310 ;

(3) http://www.tawalt.com/?attachment.id=10314

(4) Wild.j.p.; The textiles from Building, Ghirza a Libyan Settlement in the Roman period published by the Department of antiquities, Tripol i.(1984).pp.3 02 -303.; Daniels.C.; Peportson Expedition the Society of Libyan Studies, London (1970-71), pp. 5-6.

أخرى يؤكد كاوبر[١] «أن الزى الطرابلسي الذي يلبسه جميع المسلمين المحليين في المدن أو في الريف هو (البرقان) أو (الحولي)، ولا نشاهد هذا اللباس البديع في الشرق إلا بين تونس ومصر، وهو يمتاز بميزات خاصة به وحده. فهو يتألف من جلباب أبيض ملفوف بعناية حول الجسم بحيث تَظَلَّ اليد اليمنى حرة، وكذلك بحيث يكون في الوسع رفع طرفه ليكون غطاءً للرأس كما يظهر على الناس عمومًا.

ولما كان (البرقان) منتشرًا في القسم الأكبر من المناطق الرومانية السابقة من إفريقيا فلا شك في أنه (التوجة) الرومانية التي وجد الفاتحون المسلمون الناس ملفعين بها فتبنوها هم أيضًا لأنفسهم. وبالطبع إن هذا التحليل حول أصل الرداء الإغريقي تنقصه الدقة والدليل يأتي من شهادة المؤرخ اليوناني هيرودوت[٢] الذي قال: «ثوب ودرع أثينا قد نقلهما الإغريق عن النساء الليبيات». وقال: «غير أن لباس النسوة الليبيات جلدي وعذبات دروعهن مصنوعة من جلد الماعز». بل أكد بعض العلماء[٣] أن اللباس الروماني منقول عن اللباس اليوناني القديم، وأن اليونان قد نقلوا العباءة أو الجرد عن الليبيِّين القدماء.

ومن كل ما تقدم يتضح أن صناعة النسيج في ليبيا من الحرف القديمة قِدَم التاريخ والإنسان نفسه، وعلى ذلك فإن تحديد الزمن الذي نشأت فيه هذه الحرفة المؤثرة في حياة الإنسان لا يقل عن الألف الخامس قبل الميلاد، ويقيني أن المزيد من الدراسات الجادة والمتمعنة في آثار البلاد المنسوبة إلى تلك الحقبة من الزمن كفيلة بكشف المزيد عن هذه الحرفة وغيرها من الصناعات الأخرى، وإن كان لا يمكن نكران الدور الفينيقي أو الإسلامي في مواصلة النهوض بهذه الصناعة، إلا أن هناك حضارات أخرى على ما يبدو كان لها باع طويل في صناعة النسيج؛ ومن هذه الحضارات ما صنعه إنسان هذه المنطقة، وليس أدل على ذلك من أن جُلَّ الزخارف المرسومة على النسيج الليبي الذي تناقلته الأجيال هي عبارة عن رموز وكتابات قديمة لم يمنع اندثارها من ظهورها على كل الصناعات المتعلقة بحياة الناس ومنها الملابس.

أما بخصوص صناعة النسيج في العصر الإسلامي فيمكن القول إنها كانت من الصناعات الرئيسة في ليبيا ليس في العصر العثماني فحسب بل قبله بكثير، فقد أشار الأدريسي[٤] المتوفى عام (٥٦٠هـ/ ١١٦٦م) إلى أن طرابلس «متقنة الأسواق وبها صُناع وأمتعة تجهز بها إلى كثير من الجهات» وذكر أيضًا أن لمدينة «لبدة» على البحر صناعات وسوق عامرة. وقبيل الحكم التركي بما يزيد عن الثلاثين سنة زار حسن الوزان[٥] طرابلس، وذكر أن أسواقها منسقة مفصولة عن بعضها البعض بحسب اختلاف الحِرَف لا سيما حرفة النساجين.

---

(١) سوانسن كاوبر، مرتفع إلهات الجمال استكشاف الهياكل الثلاثية والمواقع الغليثية في طرابلس، تعريب أنيس زكى حسن، دار الفرجاني للنشر، طرابلس، (د.ت)، ص ٢٩.

(٢) هيرودتس، الكتاب الرابع، ترجمة: محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٣٩٨هـ / (١٩٧٤م)، ص ١٢٨.

(٣) غوليا لم ناردوتشى، برقة منذ الاستيطان الإغريقي قديمًا وحديثًا، ترجمة: إبراهيم أحمد المهدوي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط ٢، (١٩٩٦م)، ص ٢١.

(٤) الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطابع أبريل، ليدن، (١٩٩٨م)، ص ١٢١، ١٣٠.

(٥) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقية،، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، ط ٢، بيروت، (١٩٨٣م)، ص ٩٧.

الصوف ودوره في صناعة النسيج خلال العصر العثماني:

من الطبيعي أن تقوم هذه الصناعة على مواد أولية بعضها حيوانية وأخرى نباتية أو معدنية، الخامات الأولى متاحة لسهولة الحصول عليها بالنسبة للمجتمعات الرعوية، إذ يعتمد الناس في الكثير من البلاد الليبية على تربية الحيوانات مصدر هذه الخامات، وأهمها طبعًا الأغنام، كما يُعد الصوف المنتَج من الأغنام التي تُربى في منطقة واسعة تمتد بطول الشريط الساحلي – لا سيما منطقة الجبل الأخضر– من الأصواف الجيدة صالحة لصناعة المنسوجات(١)، وفي هذا الإطار يذكر الطبيب الإيطالي باولو دى لاشيلا(٢) أن «برقة»(٣) اشتهرت منذ القدم بجودة أصوافها أكثر من أي بلد آخر، ويرى أنها تفوق في جودتها أحسن الأنواع في بلده. وفي هذا الإطار ذكر الحشائشي(٤) الذي زار ليبيا سنة (١٨٩٥م)، أن من ضمن المواد المصدَّرة من طرابلس الصوف الجيد. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم تكن تربية الأغنام حكرًا على الشريط الساحلي في ليبيا بل تعداها إلى الواحات الصحراوية والأجزاء الجنوبية من البلاد لا سيما «فزان»(٥)، ولكنها محدودة الأعداد لهذا اعتمدت في أغلب الأحيان على جلب الصوف من المناطق الساحلية(٦).

وينتمي الصوف الليبي إلى نوعين الأول يُعرف «بالبرقي» أو «المريوط» الذي يكثر في المنطقة الممتدة بين بنغازي إلى مطروح بمصر، ويمتاز بطوله وانخفاض نسبة الشوائب فيه فضلاً عن متانته، ويوجد أيضًا بالأردن والعراق(٧)، أما النوع الثاني فيُعرف «بالبرباري»، ويكثر في غرب البلاد ويوجد أيضًا في تونس والجزائر(٨).

---

(١) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٧.

(٢) دي لاشيلا، باولو، أخبار الحملة التي خرجت من طرابلس إلى برقة عام (١٨١٧م)، ترجمة: الهادي بولقمة، منشورات دار مكتبة الفكر، طرابلس، (١٩٦٨م)، ص ١٠، ١١، ٦٨.

(٣) تعريب للكلمة الإغريقية (باركى أو بارشى) أسستها جالية إغريقية سنة ٥٥١ ق. م، ويقال أسست فيما بين ٥٥٩–٥٦٠ ق.م، فتحها عمر بن العاص صلحًا سنه ٢٣هـ (٦٤٤م)، ثم أطلق عليها اسم المرج التي اختارها عاصمة لهم، وكانت ولاية (برقة) تطلق على منطقة واسعة تمتد ٨٥٥ كم من حدود السلوم شرقًا إلى حدود طرابلس غربًا. لمزيد من المعلومات انظر الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، دار مكتبة النور، طرابلس (١٩٦٨م)، ص ٣٠٩. محمد مصطفى بازامه، قورينة وبرقة، نشأة المدينتين في التاريخ، مكتبة قورينة، بنغازي (١٩٧٢)، ص ١٣.

(٤) محمد، بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق علي المصراتي، دار لبنان، بيروت (١٩٦٠م)، ص ٦٩.

(٥) تقع جنوب طرابلس بنحو ٩٧٠كم، كانت تابعة لها في إدارتها وحكوماتها أيام الحكم العثماني، أشهر مدنها سبها وبراك ومرزق وأوباري وزويلة وجرمة سكانها خليط من العرب والطوارق والزنوج، كان اقتصادها يعتمد على التجارة بين مدن الساحل الليبي وإفريقيا بما فيها الدول العربية، وكذلك على الزراعة والرعي، وبعض الصناعات المحلية. لمزيد من المعلومات انظر الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص ٢٤٨ – ٢٥٣.

(٦) هورنمان، فريدريك، رحلة فريدريك هورنمان من القاهرة إلى مرزق سنة (١٧٩٧ – ١٧٩٨م)، ضمن كتاب رحلتان عبر ليبيا، نقله إلى نقله إلى العربية دار الفرجاني، طرابلس، (١٣٩٤هـ– ١٩٧٤م)، ص ١٣٢.

(٧) أحمد فؤاد النجعاوي، السجاد والموكيت، منشأة المعارف، الإسكندرية، (١٩٩٠م)، ص ٤٨، ٤٩.

(٨) محمد يحيى درويش، وصلاح الدين أحمد فيظي، الثروة الحيوانية وإنتاجها في الدول العربية، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، (د. ت) ص ١٥.

ومن الجدير بالذكر أن الأصواف الجيدة تتميز بنعومتها التي تأتي نتيجة لصِغَر قطر الشعرات، مما يساعد على غزلها إلى خيوط رفيعة، وكذلك طول الشعرة وكثرة تموجاتها وانتظامها، إذ كلما زادت عدد التموجات رفعت شعرة الصوف، وكلما زادت الرطوبة زادت مرونتها وبالتالي زيادة في قوة الالتواء في عملية الغزل[١].

ويفضل الحرفيين الصوف الأبيض الذي يستمد لونه من الطبقة النخاعية بالشعرة، وذلك لسهولة تقبله الصبغ بالألوان الفاتحة، كما يساعد على التدرج من اللون الأبيض إلى البني والرمادي والأسود[٢].

إعداد الصوف للغزل:

لأجل القيام بعملية النسيج لا بد من إعداد الصوف وتهيئته وفق المراحل الآتية:

أولها: عملية الجز والقلش: فالجز، وهو قص صوف الأغنام بمقصات خاصة تسمى محليًّا (الجلم)، وهذه العملية تُجرى في ليبيا كما في باقي البلاد العربية خلال فصل الربيع وقبيل دخول الصيف[٣].

أما القلش: فيعني الحصول على صوف الأغنام بعد ذبحها وذلك بنقعها في الماء لإزالة الشوائب العالقة، ثم تُحفظ الجلود في غرف رطبة حيث تساعد الرطوبة على إضعاف الشعرة وبالتالي يسهل نزعها من جذورها[٤].

ثم يأتي دور **تنظيف الصوف** بغسله وتخليصه من المواد العالقة بغمره في الماء والصابون، وضربه بواسطة قطعة خشبية تسمى (الخباطة)، شكل (١)، وهي المرحلة التي عادة ما تقوم بها النساء، إذ جرت العادة في كل أنحاء ليبيا الاحتفال بغسل الصوف – لا سيما في مناسبات الأعراس– من أجل أعداد بعض اللوازم للعروس، فقد جاء في وثيقة منشورة ضمن كتاب اليوميات الليبية[٥] تنص الوثيقة «في يوم ٧ رجب سنة ١٢٤٤هـ (١٨٢٩م) رفع رفع الأغة حسن البلعزي.. الصوف متاع العرس المبروك إلى العويلة[٦] لأجل الغسيل».

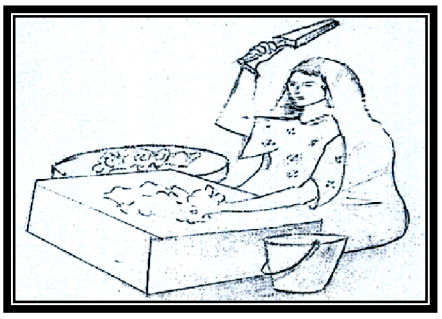

شكل (١)

---

(١) أحمد فؤاد النجعاوي، السجاد والموكيت، ص ٦١، ٦٣.

(٢) محمد فؤاد عاشور، التحليل وفحص للألياف والخيوط والأقمشة، مكتبة الأنجلو المصرية، (د. ت)، ص ٣١، ٣٢.

(٣) مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة الليبية في العصر العثماني، رسالة ماجستير، جامعة قاريونس، بنغازي ليبيا، ٢٠٠٥م، ص ٧.

(٤) مصطفى كمال حمادة، إنتاج الضأن والصوف، دار المطبوعات الجديدة، الإسكندرية، (١٩٧٤م)، ص ٣٧٠.

(٥) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، (١٩٧٤م)، ج ١، ص٤٠٣، وثيقة رقم ٨٠٧.

(٦) العويلة هي العائلة أو الأسرة حسب اللهجة الطرابلسية.

ومن ثم يجفَف الصوف بنشره في الهواء الطلق، ثم تُفرز منه الشوائب التي لا تزال عالقة به يدويًا، بعد ذلك **يأتي دور الحلج والتسريح** والتمشيط وفصل الشعيرات المتلاصقة بأمشاط خشبية خاصة عددها اثنان؛ مبطنة بأسنان معدنية صغيرة مدببة تسمى (الكرداش أو القرداش)[١]، وظيفتها أيضًا تحويل الصوف إلى أشكال تشبه الأصابع مما يساعد على غزلها[٢]. ولتبييض الصوف؛ تضاف مواد قلوية أو أوكسيد الكبريت، ذلك استعدادًا لعملية الغزل. شكل (٢)

شكل (٢)

غزل الصوف:

بعد أن يحضر الصوف في هيئة أصابع تسمى محليًا «قلوب الصوف» بواسطة الكرداش، تبدأ عملية الغزل بواسطة آلة المغزل، شكل (٣)، حيث تمسك السيدة (أو الصانع) جزءًا من الصوف المهيأ للغزل بين الإبهام والسبابة وتبدأ في سحب الصوف مع البرم المستمر (الفتل) في اتجاه واحد على المغزل، بحيث يكون الصوف المعد للغزل في الأسفل في حين ترتفع اليد إلى الأعلى. وأحيانًا تتم عملية برم المغزل بمساعدة الساق؛ حيث تُمسك السيدة بيدها اليسرى المغزل وتبرمه بمساعدة ساقها في حين ترفع يدها اليمنى بالخيط[٣]. شكل (٤)

شكل (٣)

شكل (٤)

---

(١) يبدو أن هذا الاسم قد تصفح بفعل التقادم حيث ذكرت الآلة نفسها باسم "القرناس" وقال إنها "شيء يلف عليه الصوف". مع العلم أن هذه الآلة لا تزال تستخدم في بعض القرى حتى وقتنا هذا. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) المخصص، ج ٣، س١٢، دار الآفاق الجديدة بيروت، (د.ت).

(٢) سالم سالم شلابي، ملابس لها تقاليد، مجلة تراث الشعب، العدد١، السنة١٦، ص٦٣.

(٣) صلاح حسين العبيدى، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، مطبعة التعليم العالى، جامعة بغداد، (١٩٨٢م)، ص ٢٠١.؛ سالم سالم شلابي، ملابس لها تقاليد، ص ٦٤.

ويمكن القول إن عملية الغزل حرفة متأصلة في المجتمع الليبي تقوم بها النساء منذ زمن بعيد بكل إتقان، فقد أشار العديد من الرحالة الأجانب[١] الذين زاروا البلاد إلى أن هذه الحرفة تمارسها كل نساء المجتمع بادية وحضرًا، حتى نساء زوجات حكام طرابلس[٢]، أما البدويات والقرويات فقد توارثنها جيلاً عن جيل فهي بالنسبة لهن مصدرًا للرزق وإعانة الأسرة.

وعلى الرغم من ذلك فإن أغلب خيوط الصوف المغزولة محليًا غليظة مما لا يتيح للحاكة صناعة الأنواع الرقيقة من الأقمشة الصوفية، لا سيما الأردية؛ لذلك اتجه أولئك الصناع في نهاية العهد العثماني إلى استيراد الخيوط المغزولة من خارج البلاد وبخاصة من بريطانيا عن طريق جزيرة جربة التونسية، غير أنه وفي وقت متأخر أصبح استيراد الصوف البريطاني المغزول يتم دون وسيط[٣].

الصباغة:

يعد علم الصباغة من العلوم التي لا يُعْرَفُ متى اهتدى إليها الإنسان، غير أنه بلغ حدًّا من الإتقان والجودة منذ عصور موغلة في القدم، إذ تدل الآثار الليبية وبعض مصادر تاريخ ليبيا القديم على معرفة الإنسان الليبي ودرايته بفن تركيب الألوان من مصادر مختلفة واستعماله لها[٤]. ومن المعلوم أن مصادر الأصباغ وعبر قرون طويلة من الزمن لم تخرج عن ثلاثة مصادر رئيسة يمكن إجمالها وفق الآتي:

١- **الأصباغ ذات المصادر النباتية:** وهذه جادت بها جذور وسيقان وأزهار وثمار وقشور بعض النباتات التي تفرز ألوانًا مختلفة[٥]، مثل اللون الأحمر بدرجاته المتعددة ويحصل عليه من نباتات (الفوة، والعصفر، ولحاء البلوط، والبكم، والجذارى والحناء) كل هذه النباتات كانت تُزرع في ليبيا خلال العصر العثماني لا سيما الفوة، التي كانت تُصدَّر إلى فرنسا ومالطا[٦]، أما الجدارى كان يصدر إلى مصر وبكميات كبيرة سنويًّا، وتصدر كميات كبيرة أيضًا من الحناء إلى تونس والمغرب الأقصى[٧]، ويمكن استخلاص اللون الأصفر ودرجات من الأحمر واللون الأصفر وأطيافه من نبات الزعفران (الورس) الليبي المنتشر في بعض المناطق ومنها غريان بالجبل الغربي

---

(١) رتشارد توللي، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عبد الجليل الطاهر، منشورات الجامعة الليبية، دار الكتاب للنشر والتوزيع، بنغازي، (١٩٦٧م)، ص٨٢، ٩٣، ٤٠٢؛ ليون، جون فرانسيس، من طرابلس إلى فزان، ترجمة: مصطفى جودت، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، (١٩٧٦م)، ص ٣٩، ٤٠، ٢١٥.

(٢) يذكر أن اللالة (السيدة) عائشة زوج حسن بك بن علي (الأول) القرمانلي الذي اغتيل على يد أخيه يوسف سنة (١٧٩٠م)، كانت بعد مقتل زوجها تسلي نفسها بغزل الصوف. رتشارد توللي، المرجع نفسه، ص ٤٠٢.

(٣) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة، طرابلس (١٩٧١م)، ص ٢٤٢.

(٤) لوت، هنري، الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، (١٩٧٩م)، ص ٨٨، ١٠٥؛ هيرودوتس، الكتاب الرابع، ترجمة محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (١٩٨١م)، ص ٨٢.

(٥) سعاد محمد ماهر، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٨٦م)، ص ١٠٨؛ فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية منذ الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، دار الحرية للطباعة، بغداد (١٩٧٧م)، ص ٢٣.

(٦) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، ج ١، ص ٢٢١، ٥١٣، ٦٣٢، ٣٩٣.

(٧) محمد ناجي، ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ترجمة أكمل الدين محمد إحسان، مكتبة الفكر طرابلس، (١٩٧٣م)، ص ٣٥.

والمعروف بجودته العالية مما دعى إلى تصديره إلى أروبا ومصر وتونس[١]، كما يحصل على هذا اللون من نبات الكركم الذي كلما زيد في الصبغ باللون المستخلص منه أصبح القماش ناصعًا أكثر، وفى مدينة غدامس بجنوب غرب ليبيا تستخدم كلمة حشيش للدلالة على أوراق شجر تستعمل للصبغ وهي على نوعين يسمى بحسب اللغة الغدامسية القديمة النوع الأول أجرر والثاني غلاشم[٢].

وللحصول على الأصباغ النباتية بوجه عام تُنقع المادة النباتية في خلاصة الشعير، ثم توضع في آنية نحاسية استعدادًا لتسخينها تدريجيًّا على نار هادئة، لفترة معينة، مما يجعل ألوان النسيج براقة، كما تحافظ هذه العملية على متانة النسيج ونعومة ملمسه، ثم يُغمر الغزل أو النسيج في حوض الصباغة مع استمرار تقليبه لتجانس الصبغ على الغزل، ثم تشطف بالماء البارد ويجفف. ولتثبيت الصبغة ويضاف إلى محلول الصبغ الشب أو لحاء شجر البلوط أو العصفر مضافًا إلية قشور الرمان وأشجار الفستق والجوز[٣].

٢- **الأصباغ ذات المصادر الحيوانية:** تستخدم هذه الأصباغ من دم بعض الحيوانات البرية، ومن محار بعض الحيوانات البحرية، وكذلك مسحوق بعض الحشرات، إذ يمكن الحصول على اللون الأزرق من مسحوق حشرة الجراد بعد تجفيفها[٤]، أما الأحمر بأطيافه فيحصل عليه من أنثى حشرة القرمز التي تقتات على نوع معين من شجر السنديان وشجر البلوط، لكنه لا يصبغ دون مثبت للون. كما يؤخذ هذا اللون من المسحوق الجاف لدودة القز[٥].

ويعد دم الثيران والأغنام من أسهل السبل للحصول على اللون الأحمر والضارب إلى الحمرة أما الأصفر فيستخلص من مرارة بعض الحيوانات بعد تجفيفها وطحنها[٦].

ومن الجدير بالذكر أن الأصباغ الحيوانية بشكل عام لا تكون صالحة للاستخدام إلا إذا أجريت عليها عملية التسخين وأضيفت إليها بعض المواد المثبتة، وجرت العادة أن توضع المادة المراد الصبغ بها في آنية على نار هادئة ثم يضاف إليها مثبت الصبغ[٧].

٣- **الأصباغ ذات المصادر المعدنية:** شاع استخدامها بشكل خاص في منتصف القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر للميلاد، حيث استُخلصت بعض الأصباغ المعدنية من أكاسيد الحديد الممزوج مع السماق أو أملاح

---

(١) حسن بن محمد الوزان، وصف إفريقية، ص ١٠٦.

(٢) بشير قاسم يوشع، غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٨٢م)، ص ٣٧. وللمزيد من المعلومات انظر مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة الليبية في العصر العثماني، ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية منذ الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، ص ٢٣.

(٤) استخلص المصريون اللون الأزرق من محار يعيش في البحر الأبيض والبحر الأحمر منذ ألف سنة قبل الميلاد، سعد محمد كامل، فن النسيجات الشعبية الإسلامية، عالم الفكر، م ٦، العدد (٤)، (١٩٧٦م)، ص ٦١.

(٥) ألفرد لوكاس، المواد والصناعات عند القدماء المصريين، مكتبة مدبولى، القاهرة، (د. ت)، ص ٦٤.
محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (١٩٧٤م)، ص ١٢٢.

(٦) سعاد محمد ماهر، الفنون الإسلامية، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٧) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية منذ الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، ص ٤٣.

الشب مع العفص وينتج عن ذلك اللون الأسود، كما يحصل على اللون الأحمر من تفاعل أكسيد الحديد مع محلول قاعدي، واللون الأزرق من أملاح الصودا الكاوية أو الجير النهري وبعض المعادن، وهو ما وفق فيه العراقيين، الذين استخلصوا نفس اللون من مسحوق حجر اللازورد أو من مزج مقدار معين من الفضة مع زيت الآس وحشرة القرمز[١].

واستطاع المصريون القدماء الحصول على بعض الأصباغ من أملاح الحديد أو من كبريتات الحديد التي توجد كشوائب في مادة الشب[٢]. وبخصوص مثبتات الأصباغ المعدنية نذكر منها الطمي الذي استخدمه أهل العراق، وأملاح الليمون (الترتر) الذي يمنع تسرب الألمنيوم والحديد الموجودين في مادة الشب بواسطة أملاح الأمونيا الموجودة في النسيج[٣].

الصباغة في ليبيا

يمكن القول إن حرفة الصباغة وفن تركيب الألوان في ليبيا قديم قِدم التاريخ، وليس أدل على ذلك منها تلك الأواني المحتوية على بقايا الأصباغ المعدنية من ألوان مختلفة كان سكان جبال أكاكوس بجنوب غرب ليبيا يلونون بها صور حياتهم الاجتماعية التي رسموها على جدران بيوتهم داخل تلك الجبال[٤]. كما أورد المؤرخ الإغريقي هيرودوت[٥] أن الفلاحين الليبيين المقيمين بالجانب الغربى من ليبيا يدهنون أجسادهم بصبغة معدنية حمراء في إشارة إلى أوكسيد الرصاص الأحمر، هذا فضلاً عن استعمالهم نبات الفوة في الصباغة.

وبخصوص هذا الضرب من الأصباغ هناك من أشار إلى وجود المعادن التي تستخلص منها في مناطق الجبل الأخضر، حيث كانت تُوَرَّدُ إلى ميناء بنغازي بكميات هائلة وتتكدس بهيئة جبال، وتصدر إلى أروبا ومختلف أقاليم الإمبراطورية العثمانية[٦].

ويبدو أن هناك معلومات أخرى تؤكد أن هذه الحرفة تناقلتها الأجيال في ليبيا حتى العصر العثماني، حيث أشار الرحالة «ليون»[٧] إلى أن النساء العربيات في البادية الليبية يستخدمن كل الألوان تقريبًا في الصباغة، ما عدا عدا اللون الأخضر الذي يجدن صعوبة في تحضيره. وذكر فرنشيسكو كورو[٨] أن محترفي الصباغة من الطرابلسيين نالوا شهرة طيبة خلال القرنيين السابع والثامن عشر الميلاديين عبَّر عنها قناصل الدول الأروبية العاملون في طرابلس، وذلك من خلال تقاريرهم التي كانوا يرسلونها إلى حكوماتهم، والتي تتحدث عن أحوال البلاد

---

(١) وليد الجادر، الأزياء والأثاث، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، (١٩٩٥)، ج ٤، ص ٣٤٠، ٣٤٣.

(٢) ألفرد لوكاس، المواد والصناعات عند القدماء المصريين، ص ٢٤٧.

(٣) فرج حبة، الكيمياء وتكنولجيتها في العراق القديم، مجلة سومر، (١٩٦٩م)، م ٢٥، ج ١، ج ٢، ص ١٠٣.

(٤) لوت، هنري، الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى، ص ٨٨، ١٠٥.

(٥) هيرودوت، الكتاب الرابع، ص ٨٢.

(٦) محمد بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، ص ٩٣.

(٧) ليون، جون فرانسيس، من طرابلس إلى فزان، ص ٨٣.

(٨) كورو، فرنشيسكو، ليبيا في أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة وتقديم خليفة التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، (١٩٧٠)، ص ٨٨.

في شتى المجالات، وأضاف أن هؤلاء الحرفيين غالبًا ما كانوا يتخذون من صحون وحجرات الفنادق القديمة مصابغ لهم، وأطنب قائلاً: إنه رأى بصحن وحجرات السكن بفندق (سيالة) بطرابلس ربطات الغزل المصبوغة باللون الأرجواني منتشرة تجففها الرياح، وكان من بين الفنادق المخصصة للمصابغ فضلاً عن معامل النسيج ومحال لبيع هذا الإنتاج فندق (بنت السيد أو فندق مصطفى بك).

بيد أن هذه الصناعة وفى أواخر العصر العثماني تعرضت للتدهور وإلى حد كبير إذ يشير كاكيا[١] في أثناء حديثه عن الحرير أن الأصباغ كانت غير متقنة، والألوان ضعيفة التركيز، وعلى الرغم من ذلك ظلت مناطق البلدة القديمة بطرابلس حتى الربع الأخير من القرن الماضى مشهورة بهذه الحرفة العريقة ومنها حي الفنيدقة وزنقة النساء[٢].

والحقيقة ومن خلال الزيارة الميدانية لبعض مصابغ الحرير في مدينة طرابلس[٣]، يتبين أن الصباغة من ضمن الصناعات التقليدية التي لم تشهد تغيرات أساسية في أساليب تقنيتها، إذ لا تزال تعمل حتى وقتنا الحاضر بنفس الأساليب القديمة؛ حيث يتألف المصبغ من أحواض نحاسية دائرية الشكل، إلا أنها مغطاة من الخارج بالإسمنت بدلاً من الطين الذي كان يغطيها سابقًا، والأحواض تقوم على مناصب لإتاحة فراغ توقد فيه النيران.

ومن الأدوات اللازمة للقيام بالعمل: قضبان معدنية غير قابلة للصدأ، لعصر ونشر الخيوط بعد صبغها، وعصًا خشبية للتحريك في أثناء الصبغ.

وأول خطوات العمل تبدأ بإزالة الشمع من خيوط الحريرِ والذى عادة ما تبلغ نسبته في الخام حوالى ٢٠% من الوزن الكلي للخصلة الواحدة، وتتم هذه العملية ببل الحرير بالماء، ثم توضع الخصل على قضبان معدنية غير قابلة للصدأ، ومن ثم يوضع الحرير في أحواض من النحاس مغمورة بالماء استعدادًا لإيقاد النيران تحتها لفترة من الزمن تقدر بعشر دقائق، وفي أثناء التسخين يُمزج في الماء بعض الصابون بمقدار مناسب لكمية الحرير المراد صباغته على نار هادئة. ومن أجل الحصول على أفضل النتائج يجب مراعاة التقليب المستمر لأنها تساعد على إذابة الشمع بسرعة، ومن المفيد ذكره أن هذه العملية لا تستغرق وقتًا طويلاً، والوقت يُحدَّدُ عادة بحسب نسبة الشمع فيها، ولكنه في كل الأحوال لا يتجاوز ٢٥ دقيقة. شكل (٥).

أما المرحلة الثانية فيتم فيها غسل الحرير بالماء المغلي، وعصره جيدًا ثم يُنَفَّضُ كي تتباعد الخيوط المتلاصقة عن بعضها البعض، وبعد كل هذا العمل تكون الخيوط جاهزة للصباغة. شكل (٦).

---

(١) كاكيا، جوزيف انتوني، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، دار الفرجاني، طرابلس، (١٩٧٥م)، ص ١١٥.

(٢) كان من بين مصابغ المدينة القديمة والتي ظلت تعمل بزنقة النساء، مصبغة يمتلكها الحاج صبحي إسكندر الذي كان على قيد الحياة الحياة حتى بداية هذه الألفية وقد تجاوز عمره ٧٠ عامًا، هذه المصبغة ورثها الرجل عن والده، وهو سيورثها لأبنائه من بعده. سعيد علي حامد، من صناعاتنا التقليدية النسيج، ص ٧٢.

(٣) مصبغة الحاج عبد الرزاق مسلم، تقع في حي قرقارش بمدينة طرابلس.

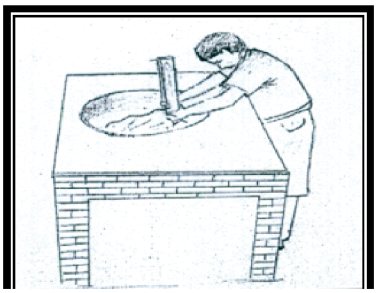

شكل (٥)

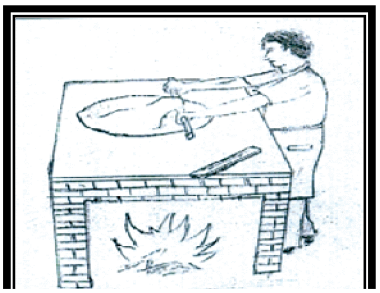

شكل (٦)

وتتم عملية الصباغة بعد وضع اللون المطلوب داخل قِدر النحاس المذكور المملوء بالماء المغلى ثم يوضع الحرير في الماء بواسطة القضبان المعدنية مع مراعاة التقليب المستمر لتتوزع الألوان بالشكل الصحيح. وبقاء الحرير في الصبغة يكون حسب درجة اللون المطلوب، فكلما تُرِكَتْ الخيوط فترة أطول في الصبغة كلما كان اللون المتحصل عليه أغمق وبالعكس إذ كان بقائها فيه لوقت أقل.

والخطوة الأخيرة في هذه العملية هى تجفيف خيوط الحرير من محلول الصبغ، حيث تنشر خصل الحرير في الهواء الطلق، لتتعرض للأشعة الشمس التي تساعدها مع الهواء طبعًا على الجفاف بسرعة. وبعد ذلك تصبح الخيوط جاهزة لعملية النسيج على النول المخصص لها. والجدير بالملاحظة أن هذه العملية تطبق على خيوط غزل الصوف أيضًا بأستثناء الخطوات المتعلقة بإزالة الشمع فهى تخص الحرير وحده.

كيفية الحصول على خيط الحرير ودور ولاة الدولة العثمانية في تشجيع المزارعين

وما دمنا نتحدث عن الحرير فحريٌ بنا قبل الخوض في آلات النسيج وتقنياته أن نعرج على كيفية الحصول على هذه المادة الثمينة والتى كان لها دور كبير في صناعة المنسوجات الليبية بشكل عام، لا سيما ملابس النساء الخاصة بالزواج والإحتفالات خلال العصر العثمانى. فمن المعلوم أن مصدر الحرير الطبيعى شرانق دودة القز التي تتغذى على أوراق شجر التوت أو أوراق شجر البلوط أو أوراق شجر الخروع، إلا أن حرير دودة القز التي تتغذى على أوراق التوت أكثر جودة ومتانة ولمعانًا[١]. حيث تفرز اليرقات شعيرات الحرير وتغلف بها نفسها طبقة فوق طبقة حتى يكتمل بناء الشرنقة فتتوقف عن فرز المادة المكونة للحرير[٢]. وبعد أن تستكمل الشرنقة بناءها وتتحول إلى يرقة ثم إلى فراشة، وقبل خروج الفراشة الذي يعنى تقطع شعيرات الحرير يتم قتلها بالتخنيق، أى وضعها في ماء ساخن عند ٨٠-٩٠°م لمدة عشر دقائق أو تعريضها لبخار الماء[٣].

وتحل الشرانق بسلقها في ماء ساخن (٨٠-١٠٠%) ولمدة عشر دقائق وذلك لإذابة الجزء الأكبر من مادة (السرسين)[٤] أما الباقى فيذاب بالماء الساخن والصابون، ثم تجذب بضعة خيوط لعدة شرانق معًا ويتم حلها ولفها

---

(١) عزيز محمد عزب، طباعة المنسوجات، دار مطابع الشعب، (د. ت)، ص ٥٥.

(٢) محمد أحمد سلطان، الخامات النسيجية، منشأة المعارف، الإسكندرية، (١٩٩٠)، ص ١٧١، ١٧٢.

(٣) محمد أحمد سلطان، المرجع نفسه، ص ١٧٣.

(٤) مادة شمعية أو صمغية تتكون طبيعيًا في خيوط الحرير وتزال بواسطة عملية الغسيل بالماء والصابون.

على دولاب حتى إذا بردت التصقت ببعض وصارت خيطًا واحدًا وهو الخيط التجارى الذي يحول إلى شلة[١] وهذه العملية تمثل مرحلة الغزل في المواد الأخرى مثل الصوف. والمرحلة الثانية من غزل الحرير تتم بسوق خاص لا زال يحمل اسم سوق الحرير المتفرع من سوق الترك بالمدينة القديمة، ويتم بواسطة صناع من الرجال حيث يقوم الصانع بإعادة غزلها على آلة تعرف (بالردانة)، وطريقة عملها بسيطة إذ تتكون من دولاب يدار باليد ويرتكز على قائمين صغيرين من الخشب لهما ذراعان ساندان من نفس المادة، ويلف بواسطة الردانة خيوط الحرير دون سواها على قضبان من القصب تمهيدًا لعمل السداة المطلوب على النول.

والحقيقة أن اهتمام الدولة العثمانية بتربية دودة القز وزراعة شجرة التوت داخل الأراضي الليبية بدأ في القرن التاسع عشر الميلادي، وبالتحديد في عهد السلطان عبد الحميد (١٢٩٣-١٢٧٣هـ/ ١٨٧٦-١٩٠٩م)، الذي أصدر فرمانًا يقضي بأن تزرع في طول البلاد وعرضها ثلاثين مليون شجرة توت[٢].

كما نَشِطَ الولاة الأتراك في حث المزارعين على زراعة هذه الشجرة لغرض تربية دودة القز فاستقدموا بذور شتلات التوت، وتم توزيعها على المزارعين الذين وقَّعوا على تعهد خطي مفاده أن يخصص كلٌّ منهم جداول من أرضه لزراعة شجر التوت[٣]. هذا وتحتفظ سجلات المحاكم الشرعية طرابلس الغرب بوثيقة قوامها مضبطة حُررت عام (١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠-١٨٥١م)، تبين جهود الدولة العليا باستقدام خمسة من الأسطوات للعمل في صناعة الحرير وتربية دودة القز، وقد وافق قدومهم موعد توريق أشجار التوت، وتفيد الوثيقة أن شجر التوت يوجد بكثرة في أغلب مزارع المنشية والساحل، حيث يستخدم لغرض التظليل على المحلات التي يخرج منها الماء أو تُقدم علفًا للحيوانات[٤].

ولما كان وجود هذه الشجرة يُعَد خطوة أولى في تربية دودة القز، وبالتالي تعلم صناعة الحرير عليه، تعهد اثنان وأربعون رجلاً من وجهاء أهالي المنشية والساحل بإعطاء جميع ورق التوت الذي في مزارعهم للدولة لمدة سنة واحدة دون مقابل؛ بشرط أن يسمح لنفر منهم مرافقة الأسطوات المذكورين من أجل تعلم حرفة تربية دودة القز لتحسين أحوالهم المعيشية، على أن تحسب مصاريف نقل ورق التوت من مزارعهم إلى مكان تربية الدود من سائر الأرباح الحاصلة من منتوج الحرير[٥].

---

(١) فوقية عباس قطب، الحرير الطبيعي حاضره ومستقبله، جامعة القاهرة، (١٩٩٣م)، ص ٢٩٤؛ ادفيك جريديني شيبون، الحرف الشعبية في لبنان، مطابع الخال إخوان وشركائه، بيروت، (١٩٦٤م)، ص ٧٧، ٧٨.

(٢) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، ص ٣٩.

(٣) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العصر العثماني، ص ١٢٦.

(٤) تيسير بن موسى، المرجع نفسه، ص ١٢٦.

(٥) المركز الوطني للمخطوطات والوثائق التاريخية، طرابلس، سجلات المحاكم الشرعية، سجل الشؤون المحلية، سجل رقم (١)، (وثيقة بدون رقم).

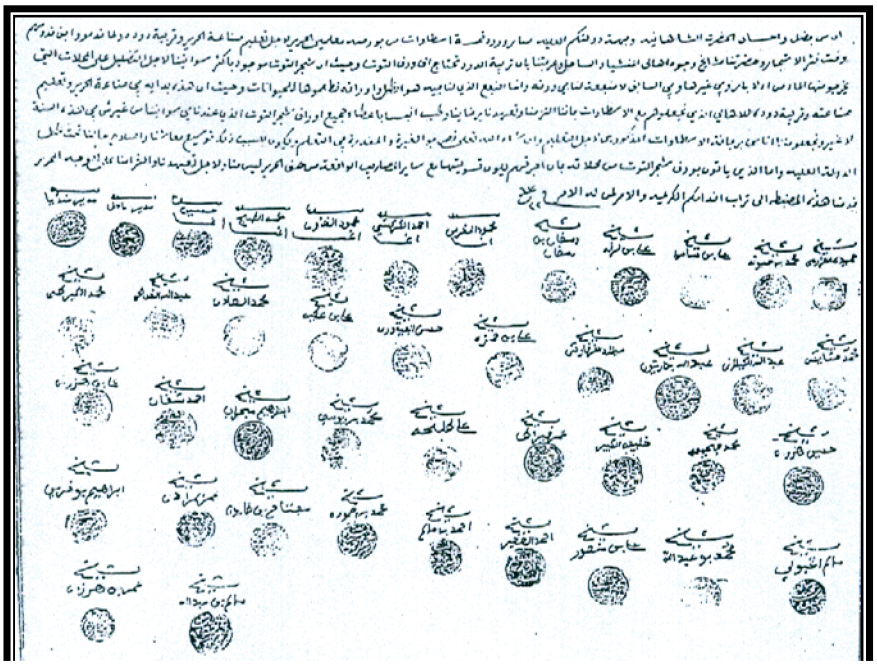

وثيقة (١)

وفي هذا الإطار تشير وثيقة أخرى منشورة ضمن كتاب ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي[١] إلى أن الوالي أحمد راسم باشا (١٢٩٩-١٣١٧هـ/ ١٨٨١-١٨٩٦م) جلب عدة آلاف من شجر التوت لتوزيعها على بعض المزارعين في مركز ولاية طرابلس وضواحيها بعد أن أجرى اتصالاته مع نظارة كبار الديوان في الأستانة. كما ذُكر الحرير في التقرير الذي قدمه هذا الوالي إلى الأستانة عام (١٨٩١م)، وقد استعرض فيه بعض الإنجازات التي من شأنها أن تنهض بالولاية في كافة الميادين، ومنها تربية دودة القز لإنتاج الحرير، وتحدَّث في التقرير عن المحاولات التي جرت منذ خمسين سنة مضت لتربة هذه الدودة لكنها بقيت محدودة بسبب بعض الصعوبات، وتقدم ببعض المقترحات لمعالجتها.[٢] كما أصدر والي طرابلس عام (١٩٠١م) منشورًا يتضمن الإعلان عن مسابقة تُجرى لتعيين أحسن مربين دودة القز وصدرة مكافأة للفائزين[٣].

النول

قبل تناول الأنوال وأنواعها لا بد من الإشارة إلى أن هذه الصناعة العريقة الضاربة في القدم تعد من الصناعات والحرف الرئيسة إبان الحكم العثماني لا سيما في المدن، وقد اعتمدت الأنوال الأفقية ذات المكوك، غير أن هناك أنوال أخرى ساهمت في النهوض بالصناعة في المدن والأرياف والبوادي الليبية ويمكن إجمالها في ثلاثة أنواع:

---

(١) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، ص ١١٥.

(٢) إمعانًا في تشجيع المزارعين أصدرت الصحف الرسمية مقالات تساعدهم في معرفة المزيد من المعلومات التي تمكنهم من الاعتناء بدودة القز تعلق بمرات إطعامها ودرجة الحرارة المطلوبة في قاعات تربيتها، والمحافظة على النظافة وغير ذلك من الإرشادات. جريدة طرابلس الغرب، العدد ٦٨٩، السنة الحادية والعشرون، ١١ ربيع الأول، (١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م).

(٣) كورو، فرنشيسكو، ليبيا في أثناء العهد العثماني الثاني، ص ٧٨.

النوع الأول: بسيط وقديم جدًا[١] يعتقد أنه احتفظ بشكله وطريقة العمل عليه كما كان منذ عصور سحيقة، إذ ظهرت صورته على الآثار المصرية ولا يزال يستخدم في أرياف مصر[٢]، وهو نفس النول المعروف (بالمسدى) والذي تتخذه النساء في البادية لصناعة نوع من الفرش يسمى (الشليف)، كما يعتمد في صناعة بيت الشعر الذي كانت تعيش فيه الأسر البدوية[٣]. شكل (٧)

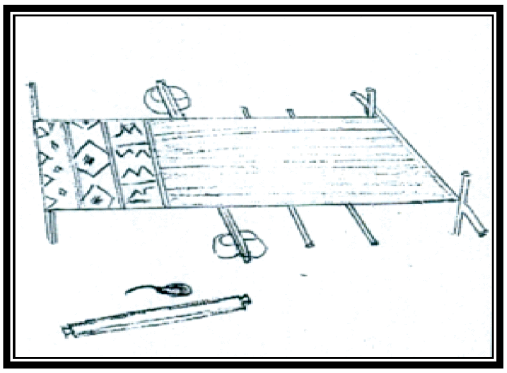

شكل (٧)

النوع الثانى: النول الرأسي، وهذا انتشر في القرى والأرياف الطرابلسية وبعض المدن، وقد أشارت إليه توللى[٤]، حيث ذكرت أنواع من المنسوجات التي كانت ولا تزال تحاك عليه ومنها ألبست الخروج الليبية المعروفة بالجرد أو الفراشية بالنسبة للنساء، والجرد أيضًا (أو حولى الصوف) بالنسبة للرجال وكذلك عباءة الصوف، كما ينسج بواسطة هذا النول البطاطين ذات الألوان المتعددة والجذابه،والسجاد الليبى البسيط ذو الزخارف المرقومة وبعض الأكلمة[٥]. شكل (٨).

النوع الثالث: النول الأفقي ذو المكوك والذي يُدار بكلتا يدي ورجلي الصانع، (النول العربي)، وقد دلت الاكتشافات الأثرية معرفة الإنسان لهذا الضرب من الأنوال منذ عصور قديمة، حيث عرفه الفراعنة واستخدمه البابليون والآشوريون، وظل مستخدمًا في العصور الإسلامية وحتى عصرنا الحاضر[٦]، وهو من أكثر الأنواع أهمية في صناعة النسيج بأنواعه ولا سيما المنسوجات الحريرية والقطنية في المدن الليبية، وقد دل على ذلك كثرة أعداد الأنوال المستعملة في ذلك العصر، ففي طرابلس وحدها بلغ حوالي ١٧٠٠ نول لنسيج القطن، و ٣٥٠ لنسيج الصوف، و ١٥٠ نولاً لحياكة الحرير، وذلك حتى سنة (١٩١١م)[٧]، غير أن الأعداد بدأت تتناقص بعد الاحتلال

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاهدهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: أ. م. كاتدمير، مكتبة لبنان، بيروت، م٢، (١٩٧٠م)، ص ٣٢٧.

(٢) سعد محمد كامل، فن النسيجات الشعبية الإسلامية، مجلة عالم الفكر، م ٦، عدد (٤)، (١٩٧٦م)، ص ٤٤١ سعد الخادم، الصناعات الشعبية في مصر، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٥م)، ص ٤٨.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة الليبية في العصر العثماني، ص٤٦ وما بعدها.

(٤) رتشارد توللى، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ص ٩٣.

(٥) للمزيد من المعلومات انظر مريم الزناتي إبراهيم، ملابس المرأة في العصر العثماني، ص ٤٦ وما بعدها.

(٦) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية منذ الفتح العربي إلى سقوط الخلافة العباسية، ص ١٧. سعاد ماهر، الفنون الإسلامية، ص ٧٩.

(٧) كاكيا، جوزيف أنتوني، ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، ص ١٠٨.

الإيطالي، بسبب هجرة معظم الحاكة إلى تونس واستقرارهم فيها، فضلاً عن إغراق السوق بالمنتجات الإيطالية رخيصة الثمن[١]. ومن جهة أخرى هناك من شاهد هذا النوع من الأنوال تعمل في بعض ضواحي مدن الشرق الليبي[٢]. شكل (٩).

شكل (٨)

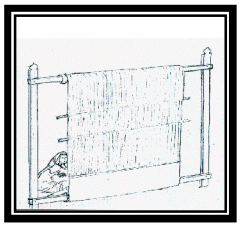

شكل (٩)

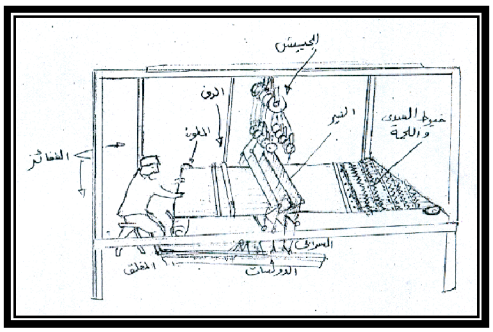

ومن خلال الزيارة الميدانية لمعامل النسيج الأهلية التي لا تزال تعمل وتقوم على النول الأفقي (النول العربي) بالمدينة القديمة بطرابلس؛ أمكن التعرف على خطوات العمل التي لم يطرأ عليها أي تغيير عبر قرون طويلة، الأمر الذي يتفق مع ما أورده أحد الباحثين في هذا المجال[٣]، حيث كان الصانع يقوم بعد الانتهاء من حل خصلات الحرير أو القطن على المكبة والمحولة، ثم الانتهاء من أعمال التسوية على الناعورة[٤]، تُجرى عملية الطي في محل خاص عن طريق ثلاثة أشخاص؛ إذ يبدأ الأسطى بحل السدى على أداة تُعرف بـ (القياس)، في حين يتولى آخر شدها بإحكام، ويقوم الشخص الثالث بلف خيوط السدى على الفرخ بواسطة اللولب وهذا يتطلب جهدًا عضليًّا، ثم يقوم الأسطى بالمناولة، وذلك بمساعدة شخص آخر يمده بالخيوط، ومد الخيوط يكون عادة بالتتابع، حيث يقوم الصانع بإيلاج الخيوط في النير باستخدام أحد أصابعه، ويعتمد الإيلاج على نوعية النول، إذ لكل نوع مناولة معينة منها (الطرف) التي يتم فيها إدخال الخيط في نير الذين على الأطراف (الطرافى) ثم الوسطيين (والأوساطى) وهكذا حتى الانتهاء من إدخال الخيوط بالنير، ثم إدخالها في الشفرة، كل خيطين معًا في كل فراغ بين أسنان القصابي بواسطة المسلة أو السارق، وعند إتمام إيلاج الخيوط جميعها تنتهي عملية المناولة وتبدأ مرحلة تركيب السدى على النول، أي إتمام عملية النسيج التي تتقاطع فيها الخيوط الطولية المتجاورة والمعروفة بالسدى، مع الخيوط العرضية المسماة بخيوط اللُّحمة، وغالبًا ما كان هذا التقاطع منتظمًا مرة من الأعلى ومرة من الأسفل باستخدام المكوك،

---

(١) كاكيا، جوزيف أنتوني، المرجع نفسه، ص ١٠٧. أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، ص ٢٤١. انظر كذلك كورو، فرنشيسكو، ليبيا في أثناء العهد العثماني الثاني، ص ٧٩.

(٢) باشو جان ريمون، رواية رحلتي إلى مرمرة وقوريني وواحتي أوجلة ومرادة، ترجمة: مفتاح عبد الله السوري، دار الجيل، بيروت، ودار الرواد طرابلس (١٩٩٩م)، ص ١٥٧.

(٣) سعيد علي حامد، من صناعاتنا التقليدية النسيج، ص ٧٥.

(٤) المكبة هي أداة من القصب تكب على قضيب من الحديد مثبت بقاعدة سهلة الدوران تساعد الصانع في حل خصلات الخيوط الذهبية الذهبية والفضية والصوفية دون الحرير. أما الناعورة فهى دولاب خشبي مؤلَّف من أربع أساطين من خشب بطول الإنسان العادي (١٧٠سم تقريبًا)، ويجمع بين كل عارضتين ثلاث عوارض خشب، ويربط الأساطين في المنصف عمود من الخشب أيضًا مركب على لبنة من الحديد، إلى أعلاه عارضة ثانية مثقوبة من منتصفها مما يحادي لبنة الحديد السفلية والعليا ويدخل بذلك الثقب رأس العمود المصفح مما يسهل دوران الناعورة.

ويحدث نتيجة لهذه العملية التكرار والتقاطع بين السدى واللحمة الزخارف باستخدام لون يمتد لمسافة معينة، ثم استخدام لون آخر يمتد لمسافة أخرى، وهكذا(١).

ومن الطبيعي أن يقوم الصانع أو النساج في أثناء عملية النسج بالضغط على الدوسات التي تجذب الدراءة المتصلة بها بواسطة حبال، ويحدث عندئذ انفراج بين خيوط السدى يُعرف (بالنفس) يسمح للمكوك بالمرور بسرعة وسهولة من اليمين إلى اليسار وبالعكس(٢).

الخاتمة:

بادئ ذي بدء يمكن القول إن هذه الدراسة التي تتبع جذور صناعة المنسوجات في ليبيا تعد هي الأولى من نوعها في ليبيا، وأرجو أن تكون أساسًا لدراسات مستقبلية أوسع للمهتمين بشؤون المنسوجات وتاريخها. ولقد توصل البحث إلى نتائج يمكن إجمالها بالنقاط الآتية:

١- أثبتت هذه الدراسة بما لا يدع مجالاً للشك أن صناعة النسيج في ليبيا أقدم بكثير مما اعتقده الكثير من الباحثين والمهتمين بهذا المجال، إذ تبين بالأدلة الآثارية أن هذه الصناعة مارسها الإنسان الليبي منذ العصور الحجرية (حوالي القرن الخامس قبل الميلاد)، ومن غير المستبعد ومن خلال جودة ألوان صباغة تلك الملابس التي ظهرت مرسومة على جدران الكهوف أن تكون علاقة هذا الإنسان بتلك الصناعة أبعد من ذلك التاريخ.

٢- توضح القرائن الآثارية أن علاقة الليبيين بصناعة المنسوجات لم تنقطع طيلة العصور القديمة، بل سارت وتدرجت مع الحضارات المختلفة ابتداءً من العصر الإغريقي ثم الفينيقي فالروماني وصولاً للعصر الإسلامي، سواء أكان ذلك في أقاليم الساحل أو الصحراء، بل إن الإغريق أخذوا عن الليبيين بعض ملابسهم وأخذ الرومان عنهم ذلك، وهو أمر مشروع بين مختلف الحضارات.

٣- كما أوضحت الدراسة أن الصناع المنسوجات في العديد من المدن الليبية وبشكل خاص «طرابلس» خلال العصور الإسلامية ولا سيما قبيل نهاية العصر الفاطمي إلى نهاية العصر العثماني كانوا على جانب كبير من التنظيم والرقي الصناعي.

٤- بينت الدراسة أن المنسوجات الليبية كانت تعتمد بشكل أساسي على مواد خام محلية أهمها الصوف الليبي المعروف بجود إنتاجه منذ زمن بعيد، وقد كانت قادرة على معالجته بشكل جيد لا سيما فيما يخص الغزل والصباغة.

٥- بينت الدراسة أن بعض الولاة الأتراك بذلوا جهدًا ملحوظًا في سبيل دعم صناعة المنسوجات الليبية ومحاولة النهوض بها لا سيما صناعة الحرير.

٦- تطرقت الدراسة لأنواع الأنوال المستخدمة في هذه الصناعة وأقسامها وكيفية العمل عليها.

مريم الزناتي إبراهيم – كلية الآداب – جامعة بنغازي – ليبيا

---

(١) صلاح حسين العبيدي، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، ص١٩٦؛ سعاد محمد ماهر، الفنون الإسلامية، ص٢١٢.

(٢) سعاد محمد ماهر، المرجع نفسه، ص٢١٢، حاشية (٢).